رحيل إقبال

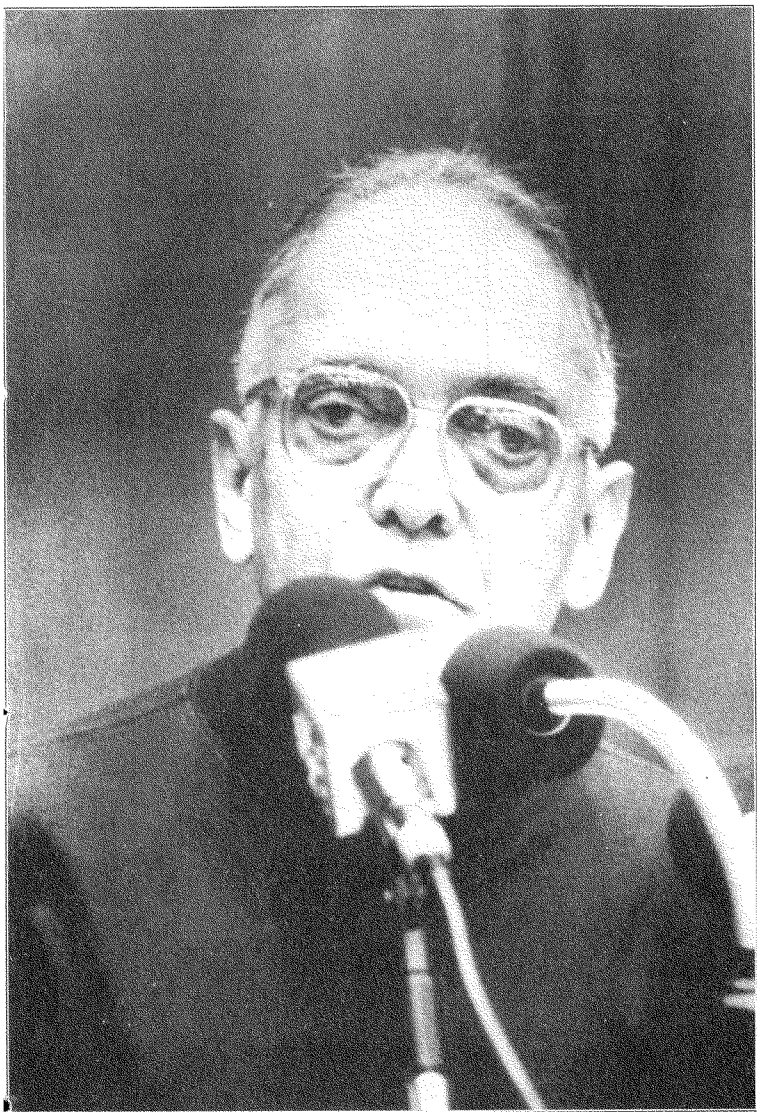

رحل إقبال أحمد، وفي نفسه شيء من فلسطين. في إحدى المحاضرات التي دعوناه إليها في أواخر الثمانينيّات باسم النادي العربيّ في جامعة كولومبيا خَتَمَ محاضرته بالكلمات التالية: «قبل أن تناموا، اسألوا أنفسكم: ماذا فعلتُ اليومَ من أجل فلسطين؟ لا تناموا، إيّاكم أن تناموا، قبل أن تطمئنّوا الى أنكم فعلتم شيئاً، ولو بسيطاً، لأجل هذه القضية العادلة. قد يكون ما تفعلونه كلمةً، وقد يكون رميةَ حجرٍ، وقد يكون ما يكون. لكنْ إيّاكم أن تضعوا رؤوسكم على الوسائد وتنسوْا أنّ هناك شعباً لا ينام تحت سقف بيته أو على وسادته».

هذه الكلمات وضعتُها بين مزدوجيْن لأنني شبهُ متأكد من حرفية الاقتباس السابق. صحيح أنني كثيراً ما أنام دون أن أنفّذ شيئاً من نصيحة إقبال أحمد، ولكنّها انحفرتْ في ذهني، وراحت فلسطين تتّخذ في كل يومٍ مسمَّياتٍ جديدة: العراق، الجزائر، الجنوب، كوسوفو، ... فالحال أنّ فلسطين لم تكن بالنسبة إلى إقبال أحمد إلاّ عنواناً شاملاً للصراع ضد الاستعمار والظلم. وقد يُحرَفُ الصراع في فلسطين عن وجهته الأساس، ولكنّ الصراع من أجل العدالة يتواصل في أماكن أخرى ويتسمّى بأسماء مختلفة، فيكون لكل مناضل في العالم «فلسطيناه» التي لم تشوّهْها التنازلاتُ والصفقاتُ والزعبراتُ و«الطرق الالتفافية».

بموت إقبال أحمد يفقد المثقفُ الأخلاقيّ المستقلّ شيئاً من توازنه. وبموته تفقد «فلسطين» ـ وأعني فلسطينَ الجغرافية، وفلسطينَ المعنوية ـ واحداً من حُماتها النادرين، ويتنفّسُ الصُّعداءَ ـ ولو إلى حين ـ كلُّ مصابٍ بمرضيّات القوة. وتفقد البشريةُ كلُّها كتفاً حانيةً وأمّاً رحوماً.

في الصفحات التالية أنقل إلى العربية ما أعتقد أنّه من أشدّ ما كُتب عن الراحل العظيم حميميةً وصدقاً، أنشره بعد موافقة الكاتب وترحيبه ـ «ما كان عليك أن تسأل!». فله الشكر، ولـ«عشيرة» إقبال أحمد في جميع أركان المعمورة الصبرُ والسلوان.

س. س. إ.